المبحث الأول

الهندوسية أو البرهمية

يعد الدين الهندوسي دينا معقّدا، ولا سبيل إلى تعريفه بكلمات، ولا بصفحات، بل حتى الهندوس أنفسهم لا يستطيعون ذلك، وتقوم الهندوسية على الصّلة المباشرة بين البشر وبين الله، وليس فيها مجال للأنبياء، ولا للرُّسل.

ويعتقد الهندوس بالوحدانية وبالتثليث، كما يعتقدون في التعدُّد، فعدد الآلهة عندهم كثير، ولكلّ إله عندهم عمل خاصّ.

ولقد مرَّت الهندوسية بأطوار ثلاثة، حيث كانت في طورها الأول هندية خالصة، وانتهى هذا الطّور بانتهاء القرن الثالث قبل الميلاد، ثمّ دخلت في طورها الثاني، وهوطور التّأثر بالعقائد الأخرى، وكان ذلك بعد دخول الإسكندر الهند، واختلاط الهنود بجنوده الذين كانوا خليطا من اليونانيين والمصريين والآراميين والكلدانيين والفُرس وغيرهم، أمّا الطور الثالث؛ فقد بدأ بالفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي.

وبالرغم من أنّ الهندوسية قد مرّت بمراحل كثيرة إلاَّ أنّها ظلَّت محافظة على معتقداتها الأساسية على مرِّ القرون، فحتى المصلحون الدّينيون الذين جاءوا بأديان جديدة من أمثال: «بوذا»، و«ماهفيرا» بقوا محافظين على الأصول الأساسية للديانة الهندوسية التي منها : «الطبيعة الخالصة للعالم ـ الكارما ـ التناسخ ـ الانطلاق».

ويقول بعض الباحثين في الهندوسية : «الهندوسية» أسلوب في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد والمعتقدات، وتاريخها يوضح استيعابها لشتَّى المعتقدات والفرائض والسُّنن، وليست لها صيغ محددة المعالم،ولذلك فهي تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة[1].

1 ـ «أديان الهند الكبرى» : أحمد شلبي، ص 688.

1. مصادر الديانة الهندوسية :

1 ـ الفيدا :

يُطلق على الأسفار المقدّسة للدّيانة الهندوسية اسم «الفيدا Védas» ؛ ومعناها : المعرفة والعلم وهي مجموعة أسفار قديمة يعتقد الهندوس أنّ جامعها هو حكيم من حكمائهم عُرف باسم «**فيدا فياسا**» ؛ أي جامع الفيدا. و لم يعرف المؤرِّخون عصر كتابتها على وجه التحقيق والضبط، وأقصى ما تأكّد لديهم أنّ الفيدا كانت موجودة قبل خمسة عشر قرناً[1].

وللفيدا قيمة تاريخية كبرى، فهي تشتمل على الأدب الدّيني، وتحكي حياة الهندوس الدّينية والسياسية والثقافية.

وتنقسم الفيدا إلى أربع مجموعات، كلّ مجموعة تنقسم إلى قسمين : الأول يُسمَّى «منترا»، وهو عبارة عن صلوات وأدعية، والثاني يُسمّى «برا همانا»، وهو عبارة عن تعاليم تتعلَّق بالعبادات والشرائع.

وأما المجموعات الأربع فهي على شكل كُتُب هي :

1 ـ ريج فيدا : «Rigvédas»، أو ريتش فيدا، ومعناها الفيدا النّارية، أو المنسوبة إلى النّار.

2 ـ ياجورفيدا : «Yajorvédas» أو ياجوش فيدا، ومعناها الفيدا الهوائية، أو المنسوبة إلى الهواء.

3 ـ سامان فيدا :«Saman Védas»، أو ساما فيدا، ومعناها الفيدا الشمسية، أو المنسوبة إلى الشمس.

4 ـ أثار فانا فيدا : ولعلّها تُنسب إلى حكيم هندي يُدعى أثار فانا.

هذا ؛ ويضيف بعض الباحثين إلى هذه الكُتُب الأربعة كتاباً خامسا يتألَّف من قسمين، وهما : «الإيتهارا»، و«البورانا»، ويُسمُّونه : «الفيدا الخامس».

1 ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : علي عبد الواحد وافي، ص : 157

ولكن الصحيح أنّ هذين السِّفْرين وأسفارا أخرى مثل : «السوترا» و«البراهمانا»، و«اليوبانيشاد»، و«الفيدانتا» هي شروح وتعليقات على الفيدا، وليست من مجموعات الفيدا، وأنّها قد أُلّفت في عصور متأخِّرة[1].

2ـ قوانين «مانوا» :

تشمل قوانين «مانو» أو «مانافا دارما ساسترا» ـ أي كتاب «قوانين مانو» ـ على تفاصيل الدين الهندوسي من حيث العبادات والمعاملات والنُّظم الاجتماعية ذات العلاقة بـ «السياسة، والاقتصاد، والأسرة، والرّق، والقوانين المدنية، والأخلاق..» «مانوأومانفا»، ولا يُعرف تاريخ تدوينه على وجه اليقين، وتذهب أرجح الآراء إلى أنّه كُتب في القرن الثالث عشر قبل الميلاد[2].

ويُعدُّ كتاب «قوانين مانو» أهم مرجع للباحث في الدِّين الهندوسي، لأنّه استوعب جميع طقوس وتعاليم هذه الديانة، فهو يعتمد ـ في ذلك ـ على أسفار الفيدا نفسها. ويشمل حوالي (2684) مادة أو فقرة، مبوّبة في اثني عشر باباً أو فصلا.

3ـ اليوبانيشاد :

لنصوص الفيدا شروح وحواشي، وهذه الشروح والحواشي صارت بعد زمن – جزءا مكمّلا للنّصوص الأصلية، وجُمعت هذه الشروح في شكل مجموعات أو رسائل فلسفية أطلق عليها اسم «اليوبانيشادات».

وتعني كلمة «اليوبانيشاد» : الجلوس بقرب، أو الجلوس مقابلا، ونفهم من هذه التسمية أنّها كانت على درجة عالية من السّرّية، والذي بين الأيدي من «اليوبانيشادات» 250 «يوبانيشادة» أهمّها 50.

وتتميّز «اليوبانيشادات» بأنّها كانت على شكل مذكّرات مدرسية تُلقّن للطلبة شفهيا، وتحفظ كل مدرسة بمجموعة منها في صورة تراتيل، أو حوار، أو مذكّرات.

1ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبد الواحد وافي، ص : 159.
2ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبد الواحد وافي، ص : 161.

2ـ العقائد الهندوسية :

لقد تأثّرت عقيدة الألوهية الهندوسية بكلّ أشكال الاعتقاد في الديانات الأخرى، لذلك فقد اشتملت على التّعدّد والتثليث والتوحيد.

ـ التّعدّد في الهندوسية :

اشتملت الدّيانة الهندوسية على أنواع شتّى من الآلهة، فكان منها آلهة تمثّل قوى الطبيعة كـ «المطر، والسحاب، والنّار، والريح، والبحار».

كما اشتملت على عبادة «الأسلاف»، وفي هذا يقول الأستاذ عبّاس محمود العقاد : «الهند تنطوي هياكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب، منها ما يلحق بالحيوان، ومنها ما يلحق بعناصر الطبيعة، ومنها ما يلحق بالأوثان، ومنها ما يلحق بالأنصاب، وكثير منها ما يتطلّب من سَدَنَته أن يتقرّبوا إليه بالبغاء المقدّس، أو بسفك الدّماء»[1].

ـ التثليث في الهندوسية :

انتهى الهندوس إلى جعل هذه الآلهة المتعدّدة ثلاثة آلهة هي : «براهما»، و«سيفا»، و«فشنو»، ويقول الأستاذ العقّاد في ذلك : «وقد انتهت هذه الأرباب المتعدّدة إلى الثالوث الأبدي، الذي اشتمل على ثلاث من الصّور الإلهية هي : 1 ـ الإله «براهما» في صورة الخالق. 2 ـ الإله «فشنو» في صورة الحافظ الرحيم 3 ـ الإله «سيفا» في صورة الهادم[2].

ـ التوحيد في الهندوسية :

يقسّم البيروني[3] الهنود إلى عامّة وخاصّة، ويُفترض في الخاصّة أنّهم موحّدون، وغيرهم وثنيون، وفي ذلك يقول : «واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنّه : الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم الحيّ المحي المدبّر المنفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لا يشبه شيئا، ولا يشبهه شيء»[4].

---

1 ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقّاد، ص 41.
2 ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومة، عباس محمود العقّاد، ص : 42.
3 ـ هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني «ت 440 هـ» رحّالةٌ وفيلسوف وفلكي وجغرافي وجيولوجي ورياضياتي وصيدلاني ومؤرخٌ ومترجم لثقافات الهند. وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وهو شيعي العقيدة.
4 ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، علي عبد الواحد وافي، ص : 163/ 164

• عقيدة «الكرما Karma» : العمل والجزاء

يعتقد الهندوس أنّ جميع أعمال البشر الاختيارية التي تؤثِّر في الآخرين - خيرا كانت أو شرّاً - لا بد أن يُجازى عليها بالثواب أو العقاب - طبقا لناموس العدل الصارم - ففي الكون نوع من النّظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس دون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كلّ شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في الحياة الدنيا.

• عقيدة التناسخ

يُطلق الباحثون على هذه العقيدة اسم «تناسخ الأرواح»، و«تجوال الروح»، و«تكرار المولد»، وخلاصة هذه العقيدة : أنّ النّفس - بعد مفارقتها للجسد - تعود إلى الحياة في جسد آخر لتستوفي ديونها، وتكمل رغباتها وشهواتها التي لم تستوفها في الحياة السابقة، وتظل كذلك حتى تستوفي كلّ ديونها، فلا يبقى لها في علاقتها مع الآخرين ما يستحقّ العودة مرّة أخرى. وهذه العقيدة هي أهم ما يميّز الديانة الهندوسية عن غيرها من الديانات، ويقول البيروني في ذلك : «كما أنّ الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ عَلَمُ النِّحْلة الهندية، ومَن لم ينتحله لم يكن منها»[1].

• الانطلاق :

هوبحسب اعتقاد الهندوس التَّحرُّر من تكرار المولد، وهونهاية دورات التناسخ المتكرّرة، والوصول إليه يتطلّبُ اكتمال الميول والشهوات وتوقفها، وذلك بتغلُّب الإنسان على نفسه بحيث لا يُبقي له شهوة، ولا ميلاً.

والانطلاق هو الهدف الأسمى للحياة عند الهندوس، ويكون بالتَّخلُّص من دورات التناسخ والاندماج بالروح الأعظم «براهما»، والانطلاق هوامتزاج الروح الأصغر «روح الإنسان» بالروح الأعظم «براهما»، كما تمتزج قطرة من ماء بالمحيط العظيم[2].

---

1 - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة : أبو الريحان اليروني، ص : 39

2 - «أديان الهند الكبرى»، أحمد شلبي، ص 70.

3- الطبقات الهندوسية :

عرف البشر- عبر مراحل تاريخهم الطويل- التفاوت فيما بينهم، وكانت معايير التفاوت مختلفة من جماعة بشرية إلى أخرى، فتفاوتوا بمعيار المال، كما تفاوتوا بمعيار الجنس «الذَّكر والأنثى»، وتفاوتوا بمعيار لون البشرة، وعرفوا التفاوت والتفاضل بمعيار الدّين.

ولم يكن المجتمع الهندي بمعزل عمّا عرفه البشر، فعرف هو - أيضا- التفاوت بين أفراده؛ بل إنّ التفاوت الطبقي الذي عرفه الهندوس لم يعرفه أيُّ مجتمع آخر من حيث الأساس الذي قام عليه، ومن حيث طول الفترة التي عاشها هذا النّظام. يقول «ويلز Wells» في كتابه «مختصر تاريخ العالم» : «كان المجتمع الهندي - بعد الغزو الآري - مُقسَّما إلى طبقات، لا يؤاكل بعضها بعضاً، ولا تتزاوج، ولا تختلط اختلاطا حرّاً، ثم استمرّ هذا التقسيم الطبقي أمد التاريخ كله، وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكّان الهند شيئا فشيئا يخالفون المجتمعات الأوربية والمغولية البسيطة السهلة التزاوج، فهو- في الحقيقة- مجتمع المجتمعات»[1].

وأهم مكوّنات المجتمع الهندي أربع طبقات رئيسة، علماً أن هناك طبقات كثيرةً أخرى، والطبقات الأربع هذه التي حدّدها الباحثون ليست سوى تبسيط للحديث عن نظام الطبقات في الهند، وهي :

طبقة «البراهمة» : وهم رجال الدّين الذين يقومون بتعلُّم وتعليم «الفيدا»، والإشراف على الحياة العامة للإنسان الهندوسي.

طبقة «الكشتريا» : وهم الحكّام، وقادة الجند، والجند، والقُضاة، ووظيفتهم جميعاً هي الحُكم والقتال.

طبقة «الويش» : وتتكوّن هذه الطبقة من العمّال، والصُّنّاع، والتُّجّار، والزُّرّاع.

طبقة «الشودرا» : وهم الذين يقومون على خدمة البراهمة، وخدمة الطبقات الأخرى، وهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا.

1- موجز تاريخ العالم، هـ. ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص : 122

أسباب نشأة نظام الطبقات :

1ـ العِرق والجنس :

يقول أصحاب هذا الرأي : إنّ أصل ظهور هذا النّظام يعود إلى دخول الآريين إلى الهند، فقد لجأ هؤلاء إلى تمييز أنفسهم بهذا النّظام، حتّى يحافظوا على سلامة عِرْقهم، خوفا من الاندماج مع الأجناس الأخرى التي اتّصلوا بها واختلطوا معها.

2ـ الدّين :

يقول أصحاب هذا الرأي : إنّ سبب نشأة هذا النّظام يعود إلى ما اعتقده الهندوس، وما وُجد في نصوصهم المقدّسة، التي تُصوِّر أنّ براهما خَلَقَ الناس من مناطق مختلفة من ذاته، فقد جاء في الفقرة (87) من «قوانين مانو» : «ولصلاح هذا العالم وفلاحه خَلَقَ الإله الأعظم براهما الفِرَقَ الأربع من وجهه، وذراعيه، وفخذيه، وقدميه»[1].

1ـ قوانين مانو : ترجمة إحسان حقي، ص : 63.